تعلمت من يوسف عليه السلام

تلخيص

المحاضرة الرابعة عشر

في قصصهم عبرة

المقدمة

- في خواتيم سورة يوسف عليه السلام، تتجلّى لنا خلاصة عميقة لمنهج الدعوة إلى الله، حيث نستنبط قواعد راسخة وفوائد جليلة تسير بالدعاة في طريقهم، وتضع أمامهم معالم الهداية والاستقامة.

تبدأ الآيات ببيان حال الناس مع الحق، { وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ } ، لتؤكد أن طريق الدعوة ليس سهلاً، بل هو محفوف بالمكابدة والعناء، وأن كثرة الإعراض لا ينبغي أن تصيب الداعية باليأس أو الإحباط، فالمعيار ليس في عدد الأتباع، بل في أداء الأمانة، { وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ } ، فالدعاة يعملون لله، لا لأعداد أو تصفيق.

- ثم تأتي القاعدة الثانية : التجرد من طلب الأجر، { وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ } ، وهي قاعدة أصيلة في منهج الأنبياء، فالداعية لا ينبغي أن يجعل من الدعوة وسيلة للكسب أو التكسّب، بل يكون نقيًا متجردًا، بعيدًا عن أي ضغط مادي قد يؤثر على صدقه أو استقلاليته. فحين يعلم الناس أن الداعية لا يرجو منهم مالاً، تميل القلوب إليه وتثق بكلامه.

- وقد استدل الأنبياء بهذه القاعدة على صدق دعوتهم، كما قال نوح وهود وصالح وغيرهم من رسل الله : { وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ }، فيفهم الناس أن ما يحمله الداعية من مشقة وأذى إنما هو بدافع الإخلاص، لا الطمع.

- وتظهر هذه الحكمة في قول مؤمن آل يسين: { ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ} ، فجمع بين شرطين هما معيار المصداقية : عدم طلب الأجر والهداية الصادقة، وبهذا نفهم أن مجرد عدم أخذ المال لا يكفي، فقد يستغله أهل الباطل مثل المنصرين أو السحرة والدجالين ليضلوا الناس، رغم تقديمهم خدمات دون مقابل في الظاهر.

- لذا، ينبغي على أهل الحق أن يلتزموا بهذا التجرد، ما استطاعوا، خاصة وأن دعوتهم مبنية على التوحيد والهداية والصدق، فإذا اجتمع فيها التجرد والمصداقية والقدوة، كان لها الأثر العظيم والانتشار السريع، لأنها توافق الفطرة، وتلامس القلوب.

- ومع ذلك، لا يُفهم من هذا تحريم أخذ الأجر في ذاته، فالنبي ﷺ قال: " إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله"، ويجوز أخذ الأجر على تعليم القرآن أو العلوم الشرعية إذا تفرغ الشخص لذلك، ولكن الأفضل للدعاة أن تكون لهم مصادر رزق أخرى خارج مجال الدعوة، ليبقى تأثيرهم أكبر في نفوس الناس.

- ثم تشير الآية إلى بعدٍ أعظم : عالمية الدعوة، { إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ} ، فدعوة الإسلام ليست محلية أو إقليمية، بل رسالة ربانية للعالم كله : لأوروبا وآسيا، لأفريقيا وأمريكا، لكل الأعراق واللغات والبلدان. والوعي بهذا الهدف يغيّر حجم الاستعداد والتخطيط، ويضع على عاتق الدعاة مسؤولية كبرى، تُعدّ لها الخطط والوسائل لتصل الرسالة لكل مكان.

- ورغم أن الآية نزلت في مكة، في أشد فترات الضعف والاضطهاد، إلا أنها كانت تؤكد للنبي ﷺ أن دعوته ستبلغ الآفاق، وهذا يرسخ قاعدة إيمانية : حتى في الضعف، تبقى الهمم عالية، والرؤية واضحة، والاستعداد للمستقبل واجب، وإن عجزت اليوم عن التبليغ الكامل، فاحمل النية، وأعدّ نفسك، فـ"إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى".

- إنها دعوة مفتوحة لكل داعية أن يتحرك على قدر وسعه، مراعيًا ظروف الزمان والمكان والمصلحة، ولكن في قلبه نية عالمية، وهمٌّ كبير، وخطة تتسع للدنيا كلها.

وهكذا ترسم لنا خواتيم سورة يوسف منهجًا متكاملاً للدعوة:

صدق وتجرد، تخطيط وعالمية، همة رغم العجز، وأمل رغم القيود، وإخلاص لا تشوبه الماديات.

" بين آيات الكون وتلبيسات الشيطان : دروس في الاستدلال والتوحيد من سورة يوسف "

في سياق الحديث عن الدعوة في خواتيم سورة يوسف، تأتي الآية :

{ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } ، لتبيّن عظمة التأييد الرباني للدعاة إلى الله، فالدعوة للتوحيد ليست معزولة عن الواقع ، بل الكون كله مؤيِّد لها، داعم لرسالتها.

- فالدعاة مدعومون بكل آية في السماوات والأرض، لا بالمعجزات فقط، بل بكل شيء حولهم : الشمس، القمر، الأرض، النبات، والإنسان ذاته. الكون بمنظومته هو دليل حيّ على التوحيد. ومنهج القرآن في الدعوة يؤكد هذا الاستدلال العقلي، كقوله :

{ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ } ، و{ أَفَلَا يَتَفَكَّرُونَ } ، و { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ}

- فالرسالة واضحة : كل ما في الكون يدل على الله، ولكن الناس تمر على هذه الآيات يوميًا وهي عنها غافلة، لا ترى فيها إلا الاعتياد، لا الإعجاز.

وهنا إشارة عظيمة : أن المعجزات ليست أعجب من آيات الكون؛ فالله سبحانه قال في الكهف:

{ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا } ، أي أن نومهم ثلاثمئة سنة ليس أعجب من الشمس، والقمر، والخلق البديع من حولنا. لكن المشكلة في البشر أنهم إذا اعتادوا الآيات غفلوا عنها، وبحثوا عن "الجديد" المبهر.

ورغم كثرة هذه الآيات، فالكثير يمر عليها معرضًا، ولهذا كانت رسالة تطمين للدعاة : ليس النقص في الأدلة، بل في بصائر الناس. فلو لم يؤمنوا بالكون كله، فهل تنفع معهم المعجزات الخاصة؟

- وهذا يربط بعبادة عظيمة مهجورة : التفكر في آيات الله، كما جاء:

{ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ }

بل إن الله عز وجل حذّر من حال أولئك الذين رغم الإيمان ببعض حقائق العقيدة، إلا أنهم يقعون في الشرك، فقال:

{ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ }

وهنا تأتي طريقة إبليس الخبيثة في إفساد دعوة التوحيد : فهو لا يأتي بالباطل صريحًا، بل يخلطه ببعض الحق حتى يُقبَل. فكما أن السم يُوضع في العسل، كذلك الشرك يُزيَّن للناس ببعض معاني التوحيد.

فالشيطان يدفع الناس أولاً للإيمان بالله كخالق ورازق ومحيي، ثم يمرر لهم عبادة غيره " لتقريبهم إلى الله "، كما قالوا:

{ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ }

- وبذلك يدخلهم في الشرك من باب الوساطة، مستغلاً فطرتهم، ومسمياته الخادعة، كتعظيم الأولياء أو التبرك بالتماثيل أو القبور.

ومن هذا الباب جاء تفسير ابن عباس : كانوا يعترفون أن الله هو الخالق، ولكنهم يعبدون معه غيره، ويظنون أنهم ما زالوا على الإيمان، فيقعوا في الشرك وهم لا يشعرون.

- وهذه الخديعة مستمرة حتى يومنا هذا، فكم من شخص بدأ بتعظيم الأولياء ثم انتهى بعبادة القبور؟

- وكم من إنسان ظن أن تعليق التمائم والحظاظات والخمسة وخميسة من البركة، وهي شركيات؟

- وكم من داعٍ للباطل لبس لبوس " المفكر الإسلامي"، وبدأ بتعظيم القرآن لينكر السنة، أو دعا إلى "تجديد الخطاب الديني" ليهدم أحكام الإسلام الثابتة؟!

- إبليس لا يفتح على الناس أبواب الشر دفعة واحدة، بل يغلفها بعسل مزيف من الكلمات البراقة والخطاب المقنع، ليهدم التوحيد في نفوسهم شيئًا فشيئًا.

لذلك لا يكفي الدخول في الإيمان، بل المهم هو المحافظة عليه، والحذر من تلبيس إبليس، سواء بالشرك الأكبر أو الأصغر، كالحلف بغير الله، أو الرياء، أو التعلق بالتمائم.

وفي الختام ، تحذر الآيات من الغفلة عن الله:

{ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}

وكأنها توقظ الغافلين : من أين لكم هذا الأمان؟

فالغاشية قد تأتي بأي صورة : زلازل، أعاصير، أمراض، أو حتى قيام الساعة، فكيف يأمن العبد وهو مقيم على معصية، مستغلاً حلم الله عليه؟!

الرسالة ختامية بليغة : استغل وقتك الآن، فربما لا تُمهل، ولا تُنذر. فإن حلم الله عليك يجب أن يزيدك حياءً لا غرورًا، وخشيةً لا أمنًا زائفًا.

بهذا تتكامل الرؤية :

الدعوة مدعومة بآيات الكون، والمخاطر تحيط بها من مكر الشيطان، والمطلوب من الدعاة ومن كل مؤمن :

تفكر، توحيد، ووعي بمكر الباطل... واستعداد دائم ليوم قد يأتي بغتة.

" أصول الدعوة والبصيرة في زمن الفتن : دروس من سورة يوسف "

في خاتمة سورة يوسف، تأتي مجموعة من الآيات التي ترسم لنا طريق الدعوة وتضع أساسًا متينًا لفهم الواقع، وسبيل النجاة، وتحقيق العبودية لله.

أولًا : التحذير من الأمن من مكر الله

يقول تعالى :

{ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}

وهذه الآية دعوة ملحة للتوبة والخوف من عاقبة الغفلة، إذ لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

- وفي الحديث أن الأمن من مكر الله، والاشراك به، واليأس من رحمته من أكبر الكبائر.

فالخوف من الله أصل في الإيمان، وزواله من القلب يخرج العبد من دائرة الإسلام. قال تعالى : { وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } ، مما يدل على أن بقاء الخوف من الله في القلب شرط لاستمرار الإيمان.

ثانيًا : سبيل الدعوة وبصيرتها

ثم تأتي الآية العظيمة:

{ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ }

لتلخص منهج الدعوة:

١- وحدة السبيل:

الدعوة إلى الله سبيل واحد لا سُبل متعددة، وهو طريق الأنبياء والرسول ﷺ وأصحابه،

قال تعالى:

{ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ }

فالفرقة والبدع نتيجة اتباع غير هذا السبيل، كالخوارج والمعتزلة والشيعة وغيرهم.

٢- الموقف من البدع وأهلها:

لا وحدة حقيقية للأمة إلا بالعودة للسنة، ولا يجوز إهمال الخلاف العقدي أو التساهل فيه.

بل يتمسك أهل السنة بالحق، ويدعون أهل البدع إليه، دون قبول مناطق رمادية أو حلول وسط .

قال ﷺ: " فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور...".

ثالثًا: ربانية الدعوة

في قوله: { أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ } تظهر ربانية الدعوة ، ولها ثلاثة أبعاد :

- **مصدرها : الوحي فقط، لا الفلسفة أو المنامات أو الذوق كما يفعل أهل البدع.**
- **منهجها : منهج الأنبياء، الذي يراعي القدرة والعجز، والمصالح والمفاسد، ولا يسلك وسائل فاسدة لتحقيق غايات شريفة.**

- غايتها : تحقيق العبودية لله في كل حال، سواء في حال الاستضعاف أو التمكين، فالمسلم يؤدي المتاح من العبودية في زمانه ومكانه، دون تهور أو استخفاف بالممكنات.

فـ التمكين ليس هو الغاية النهائية، بل وسيلة لتحقيق العبودية، والعبد يُحاسب على جهده لا على النتائج.

▪ رابعًا: البصيرة في الدعوة

قال تعالى : { عَلَىٰ بَصِيرَةٍ }

والبصيرة هي نور القلب، وهي كالعين للرأس، تُحصَّل بثلاثة أمور :

١- العلم الشرعي: وهو نور، لا بد من تعلم الأصول والضوابط الصحيحة.

٢- العمل بالعلم : فمن لم يعمل بما علم، يُنزع منه نور العلم.

٣- العبادات المقوية للقلب: كالصلاة، والصوم، والقرآن، والتقوى.

والبصيرة تُفسد بالذنوب، كالنظر المحرم والفواحش، وتُضيّع نور القلب، فيصير صاحبه في ظلمة، لا يميز بين الحق والباطل، خصوصًا في زمن غلب فيه "الرمادي".

خامسًا: ميراث الدعوة والتربية على المنهج

قال : { أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي } ، أي أن الدعوة لها أتباع، ولا بد من تعليمهم أصول الطريق، وتوريثهم المنهج، ليواصلوا المسيرة بعلم وبصيرة وإخلاص.

دعوة الأنبياء دعوة ربانية واضحة، سبيلها واحد، غايتها عبودية الله، وسلاحها العلم والبصيرة.

ولا بد للداعية من التزود بالخوف من الله، والنية الخالصة، والتعامل مع الواقع بموازين شرعية لا انفعالية.

فمن أراد نصرة الدين فليكن على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، بعقيدة صافية، وعمل صادق، ودعوة على بصيرة.

"الدعوة على منهج النبوة: من التوحيد إلى البصيرة، ومن الخواطر إلى اليقين"

- في تتمة الحديث عن قوله تعالى: { قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ }

تتجلى معالم عظيمة لطريق الدعوة الراشدة، بدءًا من التوحيد ونبذ الشرك، ومرورًا بصفاء المنهج، وشمولية الدعوة، وانتهاءً بتفسير عميق لمعنى اليأس في حياة الرسل.

أولًا: الدعوة أساسها التوحيد

{ وَسُبْحَانَ اللَّهِ } : تنزيه لله عن كل نقص، وتأكيد على أن الدعوة لا بد أن تبدأ بتعظيم الله وتوحيده، فهو أصل الأصول.

كثير من الناس موحدون اسمًا، لكنهم بحاجة إلى تعميق العقيدة وتعزيزها في قلوبهم.

النبي ﷺ حين أرسل معاذًا إلى اليمن قال: **" فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله"**، مما يدل على أن التوحيد أول أبواب الدعوة.

ثانيًا : تنقية الدعوة من الشركيات والشوائب

يجب أن تُطهّر الدعوة من الرياء وكل مظاهر الشرك الخفي.

{ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } إعلان للبراءة من الباطل وأهله، لا يكفي أن تقول **"أنا مسلم"**، بل لا بد أن تتبرأ من الكفر وأهله وتعلن الولاء والبراء.

لا يكون المسلم مسلمًا حقيقيًا حتى يعتقد أن الإسلام هو الحق وما سواه باطل، ويرفض الاعتراف بصحة أي دين غيره.

ثالثًا: شمولية الدعوة وواقعيتها

الدعوة لا تتجزأ، بل تشمل العقيدة والعبادة والسلوك والمعاملات.

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً }

كما يجب أن تكون واقعية، تراعي القدرات والإمكانات، وتبتعد عن الخيالات المثالية أو الأحلام الوردية.

رابعًا: الرسل بشر من أهل القرى

{ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ }

هذه الآية تناقش مسائل هامة:

- الرسل من الرجال فقط، والنبوة للنساء فيها خلاف سائغ، خاصة في شأن مريم عليها السلام.

- الرسل من البشر دون الجن، لقوله تعالى: { قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ}

، ولم يُبعث فيهم رسول.

كلمة { الْقُرَىٰ } في القرآن تعني المدن الكبرى، كمكة " أم القرى"، لما فيها من قوة التأثير والانتشار، ولأن أهلها أوسع ثقافة وأقدر على تحمل تبعات الرسالة

خامسًا: العبرة بسير الأقوام السابقة

{ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ }

- دعوة للتفكر في مصير المكذبين بالرسل ، إذ مَن سار في الأرض ورأى آثار القوم كقوم لوط وثمود سيعتبر.

ويؤكد القرآن على هذا المنهج مرارًا بقوله: { وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ }

سادسًا: الوعد بالنصر رغم شدة البلاء

تأتي الآية العظيمة:

{ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا } ، لتكون من أعظم آيات الأمل في لحظة اليأس.

الآية لها قراءتان :

{ كُذِبُواْ } بالتخفيف: ظنوا أنهم كُذِبوا من أقوامهم.

{ كُذِّبُواْ } بالتشديد: ظن أعداؤهم أنهم كذبة، لكن نصر الله جاءهم.

سابعًا: فهم أدق للقراءة الأصعب:

{ كُذِبُواْ } بتخفيف الذال

من أصعب المواضع فهمًا، إذ قد يُفهم أن الرسل شكوا في وعد الله، وهو غير صحيح.

`الاحتمالات لتفسير { ظَنُّوٓاْ } :

١- الرسل أنفسهم ظنوا – أي جالت بخواطرهم خواطر بشرية مؤقتة، دفعتها الثقة في الله.

٢- أتباع الرسل ظنوا أن أنبياءهم كُذِبوا.

٣- أعداء الرسل ظنوا أنهم كذبوا.

التفسير الأقرب أن الرسل كادوا أن تساورهم خواطر بشرية بالخذلان، لكنهم ثبتوا، ودفعوا هذه الخواطر باليقين.

كما قال ابن عباس: " لقد كانوا بشرًا "، يعانون المشقة وتأخر النصر، ولكن هذا لم يكن شكًا مستقرًا، بل خواطر مؤقتة مأجورون على مدافعتها.

ثامنًا: الرسالة العملية من الآية

- المؤمن قد تمر عليه مثل هذه الخواطر في زمن الفتن وتأخر النصر، والواجب أن يدفعها بالرجوع للوحي والتفكر في القصص.

- كما فعل يوسف عليه السلام حين جاءه خاطر الفاحشة، فقال: { مَعَاذَ ٱللَّهِ } ، فكان مأجورًا على مدافعتها.

- إذا اشتد الكرب فليتذكر المؤمن أن الفرج قريب، كما قال تعالى: { جَآءَهُمْ نَصْرُنَا } ، فالثبات ثمن النصر، والصبر سبيل الفرج.

- الدعوة الحقّة تبدأ بالتوحيد، وتنطلق على بصيرة، وتتجرد من كل شرك ورياء.

- لا بد من شمولية في الطرح، وواقعية في الفهم، وثبات في الطريق.

- وقد تمر القلوب بخواطر اليأس عند طول الطريق وتأخر النصر، لكن أهل الإيمان يقتدون بالرسل في مدافعة هذه الخواطر باليقين والثقة بالله.

فمن سار على سبيل الأنبياء، وبصيرة القرآن، بلغ النور ولو بعد حين.

{ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ } : مراتب الفتنة، وأسرار الثبات، وتجليات النصر في قصة يوسف "

في ختام سورة يوسف، نصل إلى محطة من أعظم محطات التدبر والإيمان، حيث يقول الله تعالى:

{ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ } هذه الآية العظيمة تحمل في طياتها بشارات ومفاتيح للثبات، لكنها من أكثر الآيات التي تحتاج إلى تدبر عميق، لا سيما في تفسير قوله: { وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ } ، والتي وردت بقراءتين:

بالتخفيف { كُذِبُواْ } : أي ظن أنهم قد كُذِبوا.

بالتشديد { كُذِّبُواْ } : أي ظنوا أن أتباعهم قد كذبوهم.

أولًا : تفسير { وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ } (بتخفيف الذال)

الاحتمال الأول : الرسل هم من ظنوا

ظن الرسل أنهم قد كُذِبوا، أي جاءتهم خواطر بشرية عابرة بأن وعد الله بالنصر قد تأخر.

ليس شكًا في وعد الله، بل خواطر إنسانية تزول سريعًا مع الإيمان والثقة بالله.

كما قال ابن عباس: " لقد كانوا بشرًا "، فهذه الخواطر لا تؤاخذ، بل يُؤجر المرء على دفعها، كما فعل يوسف عليه السلام حين استعاذ من الفاحشة.

الاحتمال الثاني : الظن كان من أتباع الرسل

المعنى: أن أتباع الرسل ظنوا أن وعود النصر قد كانت كذبًا.

وينقسم أتباع الرسل إلى نوعين :

١- أقوياء الإيمان:

تأتيهم خواطر الشك وقت الشدة، لكنهم يدفعونها باليقين.

كالصحابة الذين اشتكوا من وساوس الشيطان، فقال لهم النبي ﷺ: " ذلك صريح الإيمان"، لأنهم كرهوها ودفعوها.

٢- ضعفاء الإيمان:

يعبدون الله على حرف، فإذا اشتدت الفتنة، انهاروا وصدقوا الظن الفاسد.

قال تعالى: { وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ }

هؤلاء لا يثبتون في لحظات الشدة، فتكون الفتنة وسيلة لتنقية الصف وبناء الجيل القدوة القادر على حمل الدعوة.

وهذا درس للأمة في أوقات الاستضعاف: لابد من تمحيص الصفوف، وعلينا أن نكون من الأقوياء الذين يثبتون على الطريق.

الاحتمال الثالث: الظن من أعداء الرسل

أي أن الكفار ظنوا أن الرسل قد كُذِبوا في وعد النصر.

رأوا تأخر التمكين، فاستيقنوا أن الرسل خُدعوا، كما فعلت أم جميل عندما تأخر الوحي فقالت: " ما أرى شيطانك إلا قد تركك "، فجاء الرد الإلهي : { مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ}.

وهنا تتحول الفتنة إلى اختبار للكافرين: هل يتبعون الحق رغم استضعاف أهله، أم يضلون تبعًا لقوة الباطل؟

ثانيًا: تفسير { وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ } (بتشديد الذال)

المعنى : ظن الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم.

من شدة الابتلاء، خُيِّل إليهم أن الناس بدأت تتخلى عنهم، وأنهم ربما سيمضون وحدهم في الطريق.

وهنا تتجلى روعة الثبات النبوي :

حتى في أشد لحظات الوحدة، كانوا عازمين على الاستمرار في الدعوة، ولو لم يبقَ معهم أحد.

هذه رسالة لكل داعية ومؤمن :

إذا تخلى الجميع، فلا تتخلَّ، فالله معك.

أنت الجماعة ولو كنت وحدك.

ثالثًا : وجاء النصر...

حين يشتد الكرب، وتتظلم الحياة، ويبدو أن لا بصيص أمل:

{ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا } .

هذا وعد رباني: إذا اشتد البلاء، اقترب الفرج، وهو ما تكرر في قصص الأنبياء:

يوسف: { هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ} ... ثم الفرج بلقائه.

يعقوب: بعد البكاء والشكوى جاء اللقاء.

موسى: أمام البحر... ثم الفتح وانفراج البحر.

نوح: { أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ} ... ثم أغرق الله الظالمين.

النبي ﷺ: في عام الحزن... ثم العقبة والهجرة والتمكين.

القاعدة: { إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} ، لكن لمن؟

{مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ } ، هو الذي يوقن بوعد الله، ويرى النور في قلب الظلمة.

رابعًا : وختام السورة – العبرة الكبرى

قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ}

{ عِبْرَةٌ } تشمل كل ما ورد في السورة من معاني التوحيد، والولاء والبراء، والصبر، والتقوى، وحسن الظن بالله، وسنن الله في النصر والتمحيص.

- هذه السورة ليست { حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ } ، بل:

تصديقًا لما بين يديه من كتب الأنبياء.

تفصيلًا لكل شيء من العقائد، والشرائع، والأخلاق.

هدى ورحمة، لكن لمن؟

لقوم يؤمنون.

-سورة يوسف تنقلك من أعماق الألم إلى آفاق الأمل، ومن خواطر الشك إلى صلابة اليقين، ومن المحنة إلى المنحة.

آية { حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ } تلخص معاناة كل داعية وصبر كل مؤمن، ثم تبشره بأن الفرج قريب لمن أحسن الظن بالله وثبت.

فكن من الذين آمنوا، واتقَ، واصبر... فإن نصر الله آتٍ، ولو بعد حين.

جزاكم الله خيرا سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك